سؤال الوطن في روايات أحلام مستغانمي

The question of homeland in Ahlam Mosteghanemi's novels

د/ سعاد طويل جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)

البريد الإلكتروني: Souadtouil07@yahoo.fr

د/ نوال آقطي جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)

البريد الإلكتروني:naouel.agti@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2021/03/03	تاريخ القبول: 2021/05/09	تاريخ النشر: 2021/06/01

***Abstract*:**

The talk about the presence of the homeland as a subject of the literary text is a central focus in the act of writing for the Algerian novelist, and for him it is an emotional field before it is a field of literary creativity, we will try to approach the subject of the homeland in the novels of Ahlam Mosteghanemi, whose novels exude it. It is saying who loses a lover writes poetry and who loses a home writes a novel

***key words*:** Homeland. novel. Revolotion . National crisis

مُلخّص البحث

إن حضور الوطن موضوعا للنص الأدبي هو محور أساسي في فعل الكتابة عند الروائي الجزائري، و يشكل عنده مجالا وجدانيا قبل أن يكون مجالا للإبداع الأدبي، وعليه سنحاول مقاربة موضوع الوطن، الذي يحظر بقوة في روايات "أحلام مستغامي"، وهي القائلة:"من يفقد حبيبا يكتب شعرا، ومن يفقد وطنا يكتب رواية".

الكلمات المفتاحية: الوطن،الرواية، الثورة، الأزمة الوطنية، أحلام مستغانمي.

.مقدمة: قد لا نكون مغالين إذا قلنا إن القارئ للمنجز الروائي الجزائري يدرك ولا شك انبناءه على تيمة الوطن بالدرجة الأولى، واتخاذها بؤرة مركزية للإبداع، يرى الروائي في توظيفها ضرورة ملحة -وطنية كانت أم إبداعية-، وقد اختلف توظيفها من مبدع إلى آخر حسب الرؤية

والإيديولوجية التي يحملها، وقد أنتجت جملة من الخطابات انفتحت على قراءات وتأويلات متعددة، جعلت القارئ يسعى للبحث عن الجانب الجمالي فيها ومحاولة استنطاقه.

وأحلام مستغانمي واحدة من الذين اشتغل خطابها الروائي على الوطن بكل تمثلاته، فكان الهاجس السياسي والثوري والتاريخي والاجتماعي والثقافي مبطنا برداء الوطن في كل مراحله التاريخية.

2- تعريف الوطن:

لعل الضرورة المنهجية تبيح لنا تعريف الوطن قبل الحديث عن حضوره في النص الروائي المستغانمي وصور تجلياته وتشكله باعتباره عتبة نظرية لابد منها.

لقد ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة "و ط ن":(الوطن المنزل تقيم به وهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر: مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها... وَطَنَ بالمكان وأوطن: أقام، وأوطنه: اتخذه وطناً، يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا؛ أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها)[1]، حسبه الوطن هو المنزل والمسكن الذي يقيم فيه الإنسان، ومحلّه الذي يعيش فيه.

كما ورد في قاموس المحيط عن الوطن(منزل الإقامة، ومرْبط البقر والغنم، ج:أوطان، ووطَن به، يطِن، وأوْطَن: أقام، أوطنه ووَطّنَه واستَوطنَه:اتَخَذَه وطنا)[2]، هو مصطلح دال على مكان الإقامة، ومحل السكن. وهو المعنى ذاته في أساس البلاغة للزمخشري (وطن:كل يحب وطنه وأوطانه وموطنه، ومواطِنَهُ، والإبل تحن إلى أوطانها. وأوْطَنَ الأرْضَ ووَطَّنَهَا، وتَوَطَّنَهَاَ واستَوْطَنَهَاَ... ومن المجاز:هذه أوطان الغنم،: لمرابضها...)[3].

إن المعاني ذاتها تحملها لفظة الوطن الدالة على مكان الإقامة والانتماء في أغلب المعاجم.

ويمكن لأي فرد ومواطن أن يقول في تعريفه للوطن: إن الوطن هو المكان والأرض التي ننتمي إليها، والبلد الذي نحصل على الجنسية منه، هو الذي له حدود جغرافية معلومة، ويكبر الوطن على تلك المساحة الجغرافية ليصبح عقيدة وروحا ووجدانا يجمع كل أفراده، هو الذي تربطنا

به عاطفة الحب والإخلاص، هو الذي نموت ونحيا من أجله نهبه كل شيء دون مقابل، إنه مرجع الذاكرة الجماعية ورمز وجودنا، ويصبح الانتماء الوجداني والنفسي والولاء والإخلاص والاعتزاز بهذا الوطن هو التعريف الحقيقي للوطن في قلب كل فرد، فهو الوجود الذاتي والروحي في القلب وهو ما يعرف بمصطلح بالوطنية.

2-مقاربة الوطن: سنحاول استجلاء الوطن بكل تمثلاته عبر محاور الثورة وما بعد الاستقلال إلى جانب الأزمة الوطنية.

2-1 محكي الثورة: كانت الثورة المرجع الأساسي لكل الروائيين لاسيما فترة السبعينيات وهي فترة التأسيس للرواية الجزائرية، وهي(هاجس أساسي يحرك عملية الكتابة، أو هي تتحرك فيه، والواقع أن هذه الظاهرة لا تدعو إلى الغرابة مادامت الجزائر حديثة عهد بحرب التحرير، وما دام طابع عصرنا كله طابعا تحريريا)[4]، و(لقد منحت الثورة حالة جمالية للرواية الجزائرية، أنتجت ثقافة بأكملها تجلت فيها الثورة من خلال رموز وعلامات دالة)[5]، ومتنوعة بقيت لسنوات مرجعا هاما، سواء بتمجيدها أو نقدها كما هي أعمال الطاهر وطار في اللاز والزلزال ... وما يمكن قوله إن أغلب الأعمال حول هذا الموضوع (ليست مجرد تسجيل لملحمة الثورة الجزائرية، وإنما نقد متواصل لما أسفرت عنه من تحولات)[6]، وهي نصوص مثلت مراجعة لتلك المسلمات التي سيطرت على الخطاب الأدبي.

يتّسم طرح تيمة الثورة عند أحلام مستغانمي بالقداسة منذ الوهلة الأولى، وحسرة على صانعيها الشرفاء منهم، تحضر الثورة انطلاقا من عنوان رواية "ذاكرة الجسد"، والذاكرة يحملها البطل الراوي خالد وشما على جسده (كنت تحمل ذاكرتك على جسدك)[7]. يرحل خالد إلى الماضي ويستنطق ذاكرته ليكون التاريخ شاهدا على انحراف الحاضر، فالجسد بذراع مبتورة علامة تختصر تاريخا نضاليا.

فخالد مناضل في صفوف جبهة التحرير الوطني، فقد ذراعه في إحدى المعارك، وهي أول وأبرز علاماته الفيزيولوجية التي يركز النص دوما ويشدد عليها، كما تمثل هوية بالنسبة لخالد كما يذكر(كانت تلك بطاقة تعريفي وأوراقي الثبوتية)[8] ، أينما حل أو ارتحل.

ولقد كانت سنوات الاستقلال الأولى عند خالد علامة وشرفا بطوليا لذلك البتر، وقيم اعتزاز بالوطنية والشجاعة؛ فكان فقدانه لذراعه وساما على جسده يزيده فخرا (وقتها كان للمحارب هيبته، ولمعطوبي الحروب شيء من القداسة بين الناس. كانوا يوحون بالاحترام أكثر مما يوحون بالشفقة. ولم تكن مطالبا بتقديم أي شرح ولا أي سرد لقصتك)[9]، لكن سرعان ما أفل نجم بطولته، وانزاحت دلالة اليد المبتورة من رمز للبطولة والشرف والرفعة والسمو، ليتحول إلى تشوه وانكسار ونقص جسدي وشفقة أمام ذاته وأمام الناس (اليوم بعد ربع قرن.. ، أنت تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء في جيب سترتك، وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية، وتعتذر عن ماضيك لكل من لا ماض لهم. يدك الناقصة تزعجهم..)[10]

أول موعد خطه السرد مع الذاكرة (التاريخ/ الثورة)، كان في معرض الرسم في باريس حين التقى أول مرة بأحلام/ حياة التي لم تكن إلا ابنة الشهيد سي الطاهر، هنا تبدأ حياة أخرى لخالد يستذكر فيها ماضيا طواه مذ غادر الجزائر، يعود إلى أيام الثورة وأحداثها التاريخية الهامة، رجع بذاكرته إلى فترة اعتقاله في سجن الكديا إثر مظاهرات 8 ماي 1945، أين كان الالتقاء بين كثير من السجناء ومنهم سي الطاهر في زنزانات تضيق بعدد كبير منهم، ينظم خالد سنة 1955 إلى صفوف المجاهدين، وفي أحد المعارك تغيرت حياته بعد أن اخترقت رصاصة ذراعه الأيسر، ينتقل إلى تونس للعلاج فتبتر ذراعه ثم يغادر إلى فرنسا أين تأخذ حياته بذلك منحى أخر.

يحضر سجن الكديا وخالد يَعبُر بمحاذاته بعد الاستقلال(ها هو ذا سجن الكديا.. أتأمله كما نتأمل جدران سجن أول، دخلناه كما ندخل حلما مزعجا لم نكن مهيأين له. مرت سنوات كثيرة، قبل أن أدخل سجنا آخر، كان جلادوه هذه المرة جزائريين لا غير، و لم يكن له عنوان معروف [...] سنة 1955.. أي عشر سنوات بالضبط بعد 8 ماي 1945. عاد هذا السجن للصدارة، بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرنسا تعد لهم عقابا استثنائيا. في الزنزانة رقم 8.. المعدّة لانتظار الموت. كان ثلاثون من قادة الثورة و رجالها الأوائل، ينتظرون موثقين، تنفيذ الحكم بالإعدام عليهم، بينهم مصطفى بن بولعيد والطاهر الزبيري ومحمد لايفا وإبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد، و باجي مختار و آخرون .)[11] ، حينما يذكر السجن هنا، يقارن في

لحظة سريعة وعابرة بين زمنين، زمن الاستعمار الذي دخله لقضية وطنية تحت سلطة استعمارية، وزمن الاستقلال الذي يدخله على يد جزائريين دون تهمة معروفة (مرت سنوات كثيرة كان جلادوه هذه المرة جزائريين لا غير، ولم يكن له عنوان معروف)؛ حيث اقتيد معصوب العينين لا يدري مكانه.

إن أحلام مستغانمي وهي تتكلم عن الثورة مثلها مثل أي كاتب جزائري الذي وجد (نفسه بين فكي كماشة : صورة الماضي القريب وصدمات الواقع المتحول ، فكان يلتفت إلى الماضي ليستحضر حرب التحرير يسائلها طورا ويتلذذ بذكراها أطوارا ،وهو في ذلك يحن إلى ماض مجيد يستأنس به وقد يوظفه لنقد الواقع ، وقد يقحمه فيأتي امتدادا للخطاب السياسي الرسمي الذي جعل من التراث الوطني شعارا لتكريس الشرعية التاريخية والمحافظة على السلطة .)[12]

لقد أوكلت للاسترجاع مهمة تأريخ الأحداث وتوثيقها بصورة موضوعية وبدقة كاملة باليوم والشهر والسنة والساعة، حتى أنه تتبع سجناء زنزانته رقم 8 ومسار حياتهم، ويطلعنا أنه ما زالا اثنين منهم على قيد الحياة حتى ساعة زمن الكتابة (1988) والبقية شهدوا إعداما في السجن، ومن فرّ مات في معارك مختلفة، إن أحلام تحاول أن تؤرخ لبعض الأحداث التاريخية للثورة، الدالة عن مقاومة الشعب الجزائري التي تجاهلها التاريخ، لا سيما (إن الروائي العربي المعاصر قد أصبح . اليوم . هو "المؤرخ الحقيقي " لكثير من أحداث الأمة وقضاياها)[13] .

لقد عمدت الكاتبة إلى تسجيل هذه الأحداث في روايتها بطريقة يغلب عليها التوثيق التاريخي، فهي لم تتكلم كثيرا عن التاريخ الثوري إلا من زاوية نقده وتبيين أخطائه انطلاقا من الحاضر، وتبرز تلك التناقضات والصراعات الأيديولوجية، التي وصلت إلى التصفيات الجسدية لرفقاء السلاح، تنتقد شخصياته ورموزه خاصة بعد الاستقلال، إنها تستجلي الحاضر من أعماق الماضي وتاريخه.

إن حدود استخدام الثورة برموزها وتناقضاتها في هذه النصوص جاء مقتصرا على نقدها بصورة انفعالية أحيانا، كما أنها قدمت بطريقة طغى عليها الأسلوب البسيط المباشر والتقريري

ف (غلب المضمون الفكري ذو الطابع الانفعالي في هذه الكتابات على الشكل الفني، فقد ورد خطابها الروائي في مجمله تسجيليا للأحداث، وتوثيقا للوقائع وتقريرا للتاريخ)[14] .

كانت تيمة الثورة والسياسة عند أحلام مستغانمي حديثا عن المسكوت عنه، وتأريخا لأهم المحطات التي شهدتها الجزائر بعد الاستقلال، عبر شخصيات بعينها وأحداث بكل تناقضاتها وانقلاباتها ومفارقاتها التي رسمت مسار جزائر الاستقلال.

هكذا، قدمت أحلام مستغانمي رجال التاريخ النضالي ورجال السلطة في الجزائر وتناحرهم على كرسي الحكم الذي لا يذعن إلا لمنطق القوة.

وكانت أحلام وهي تقدم التاريخ وشخصياته (تنضو ثوب الفن وتنزع قفاز الرواية، لصالح لغة تاريخية تقريرية غابت عنها المواربة والرمز)[15]، والذي برمجت القارئ عليه في الثلاثية بأكملها وكأنها تؤرخ روائيا لهذه الأحداث التاريخية التي عرفتها الجزائر.

2-2 محكي ما بعد الاستقلال:

حاولت الكاتبة الوقوف بعمق على مسببات الأزمة الوطنية ونقل الوضع ببعض حيثياته وذلك بتعرضها لأهم المحطات السياسية التي شهدها الوطن بهدف تشريح الأزمة الوطنية بالوقوف على أسباب العنف التي أدخلت البلاد في وضع متأزم، والسبب حسبها يرجع لسياسة الحزب الواحد المتعفنة، وتوجهات رجالات البلاد في تقديم مصالحهم الشخصية على حساب الشعب والوطن.

وتقول على لسان السارد "خالد" حينما عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال رغبة في بناء الوطن وتشييده :(عندما عدت إلى الجزائر بعدها، ولأن الكلمات ليست محايدة، فقد كنت ممتلئا كذلك بالمثل والقيم ورغبة في تغيّر العقليّات والقيام بثورة داخل العقل الجزائري الذي لم تغيّر فيه الهزات التاريخية شيئا، ولم يكن الوقت مناسبا لحلمي الكبير الذي لا أريد أن أسميه "الثورة الثقافية" بعدما لم تعد هاتان الكلمتان مجتمعتين أو متفرقتين تعنيان شيئا عندنا، كانت هناك أخطاء كبيرة ترتكب عن حسن نية. فلقد بدأت التغيرات بالمصانع، والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة، وترك الإنسان إلى الأخير. فكيف يمكن لإنسان بائس فارغ وغارق في

مشكلات يومية تافهة، ذي عقلية متخلفة عن العالم بعشرات السنين أن يبني وطنا، أو يقوم بأية ثورة صناعية أو زراعية أو أية ثورة أخرى؟ .....)[16]

ويمثّل المقطع نقدا للاختيارات السياسية الوطنية بعد الاستقلال ومدى مغالاتها في الاهتمام بالقضايا التنموية الاقتصادية على حساب الفرد الجزائري، الذي خرج لتوّه من حرب عانى خلالها الفقر والجهل والأمية والتخلف ليدخل حربا لا يملك العدّة لها، إن الثورة الاشتراكية وسياستها المنتهجة جعلت الفرد الجزائري خاضعا للآلة عبدا لها، لا يفكر إلا في حدودها. لقد انشغلت السلطة بالمادة والثروات وتوزيعها ونسيت الفرد وروحه وعطاءه فما أتعس أن يعيش الإنسان وكله أزمات وروحه مكبلة ومحاصرة.

إن هذا التوجه كما تراه الكاتبة قد جعل الشعب يعتمد كليا على الدولة دون مراعاة للعمل وإتقانه فرمى بثقله على جسد الوطن دون أي جهد منه ولا عناء، كما أن هذا التوجه الاشتراكي أورث فيما بعد الانتهازية والوصولية حيث انفرد الرؤساء ومقربوهم بالمناصب واستولوا على أموال الشعب باسم الثورة الاشتراكية.

ويسعى السرد عبر الحكي واستحضار الذاكرة في ذاكرة الجسد إلى تعرية زمن الاستقلال الطافح بتناقضاته، حين يتحول الوطن إلى سجن قهري ومذل للمجاهد خالد سنة 1971، حين يدخله لـ(التحقيق و التأديب)[17]، على أيدي أبناء وطنه وذلك باسم الدفاع عن الوطن وحمايته والحفاظ على وحدته وتماسكه وأمنه، لقد صار وجود خالد زمن الاستقلال مهددا لمبادئ الثورة و قدسيتها. يُزج به في السجن ويهان ويذل و يطعن في كرامته الثورية باسم الثورة

يكتشف خالد في سجن وطنه معنى المهانة والإذلال، ينتهك جسديا ونفسيا، يتعرى أمامه الوطن بفعل أجهزته الأمنية ويد مخبريه المزروعة في كل مكان و التي تطال(بعض الذين لم يبتلعوا ألسنهم بعد)[18] بتهمة المساس بأمن الوطن، ذريعة تتخذها السلطة في قمع معارضيها ضمانا لاستمرارها، وهو الأمر الذي ضاعف إحساس خالد بالمرارة والخيبة، والفشل في تغيير وضع وطنه الذي عاد من أجله حاملا أحلاما كبيرة للتغيير والتطوير. يقف خالد في حيرة على وضع البلاد المتردي وحكامه، تثيره تساؤلات كثيرة، قادته أكثر من مرة إلى السجن بعدها كما

يقول:(أصبحت أتحاشى هذه الأسئلة، منذ اليوم الذي أوصلتني أجوبتي إلى جمع حقائبي و مغادرة الوطن)[19] متخليا عن أحلامه داخل الوطن وخارجه.

ويُحمّل خالد السلطة مسؤولية تدمير الوطن بسبب سياستها المنتهجة منذ الاستقلال، والتي تقوم على الهيمنة المطلقة للحزب الواحد الذي ظل يسيطر على الساحة باسم المرجعية الثورية.

ولتعرية الوضع أكثر تتخذ الكاتبة أحلام مستغانمي من البطلة أحلام رمزا للوطن المغتصب، وذلك حين تتطرق إلى عرسها مع العسكري "سي.." والثوري رمز السلطة الفاسدة، والمغتصب للوطن بأحقيته الثورية في امتلاك كل شيء تحت اسم الشرعية الثورية.

وأحلام رمز الوطن، تركها أبوها الشهيد سي الطاهر، وبالتالي هي أمانة حررها الشهداء وماتوا من أجلها لتبقى حرة، لكن الخونة ضيعوا الأمانة وعبثوا بها في سبيل المصلحة الشخصية التي تبيح لهم كل شيء، فها هو "سي الشريف" يخون أمانة أخيه الشهيد ويخون بذلك الوطن ببيع ابنته في سبيل مصلحته الشخصية للعسكري "سي..."إنهم يقيمون صفقتهم انطلاقا من شرعية وطنية ثورية اكتسبوها في الماضي واليوم يتصدرون الواجهة بزعمهم تمثيل المرجعية الثورية (كان رجل الصفقات السرية والواجهات الأمامية، كان رجل العملة والمهمات الصعبة. كان رجل العسكر... ورجل المستقبل)[20] بالنسبة لسي شريف زوج ابنة أخيه وسيلة لتحقيق أهدافه للحفاظ على مكانته، لذلك سعى إلى تحقيق مصالحه عبر هذه الصفقة.

إن العرس توظيف رمزي وهو بمثابة مزاد علني يسيطر عليه رجل عسكري للظفر بوطن لا يزايد عليه أحد في حضرته وسيطرته المطلقة، وصاحب العرس هو سي الشريف الذي خدم الثورة في شبابه، لكن إغراء المناصب جعله يتخلى عن قناعاته الثورية ويتبع خطى "سي ..." العسكري وهو يتسلق المناصب، ويتدحرج عن سلم القيم الذي شب عليها وتعلمها من الثورة التي تقوم على حب الوطن والإخلاص له وحده بعيدا عن الأغراض الشخصية، لقد تحول إلى رجل عمولات وصفقات كما يراه خالد (كنت أراه يتدحرج أمامي عن سلم القيم، غباء أو تواطؤا لا أدري، فاحتفظت لنفسي بما سمعته عن تلك... المنشآت وكل ما جاورها وكل من معالم وطنية

بنيت حجرا حجرا على العمولات والصفقات، وتناوب عليه السراق كبيرا وصغارا على مرأى من الشهداء الذين شاء لهم سوء حظهم أن يكون مقامهم مقابل لتلك الخيانة)[21].

وتلقي الصيغة الانفعالية للشخصية الساردة بثقلها على بنية النص من خلال المعاني التي تشكل محمولات الشخصيات الانتهازية لأصحاب الفخامة من رجال السلطة الذين حظروا العرس، فتأتي الجمل قصيرة متتالية ومكثفة المعاني مع العلامات غير اللسانية التي تفتحها على دوال متعددة(ها هم هنا.. كانوا هنا جميعهم.. كالعادة. أصحاب البطون المنتفخة.. والسجائر الكوبية... والبدلات التي تلبس على أكثر من وجه، أصحاب كل عهد وكل زمن.. أصحاب الحقائب الديبلوماسية أصحاب المهمات المشبوهة، أصحاب السعادة، وأصحاب التعاسة، وأصحاب الماضي المجهول، ها هم هنا... وزراء سابقون... ومشاريع وزراء. سراق سابقون.. ومشاريع سراق. مديرون وصوليون.. ووصوليون يبحثون عن إدارة. مخبرون سابقون... وعسكريون متنكرون في ثياب وزارية .ها هم هنا، أصحاب النظريات الثورية، والكسب السريع. أصحاب العقول الفارغة، والفيلات الشاهقة، والمجالس التي يتحدث فيها المفرد بصيغة الجمع. ها هم هنا مجتمعون دائما كأسماك القرش. ملتفون دائما حول الولائم المشبوهة. أعرفهم وأتجاهل معظمهم)[22].

إنها شخصيات تتباهى علنا بشعارات لخدمة الوطن والشعب، يلبسون قناع الفضيلة والشرف والدفاع عنه، لكن السارد يرى فيهم عكس ذلك، فهو يعرف معظمهم كما يعرف ماضيهم وحاضرهم وكيف كانوا أفرادا بسطاء قبل أن يتسلقوا سلم السلطة، إنه يفكك واقعا حاضرا ويبني واقعا جديدا وهو يشكّل هذه الشخصيات ويستعرض سلوكياتهم بما تبيح القيم الدلالية البارزة في ظل الملفوظ السردي الموظف في سياق الفصل السادس الذي يتحدث عن العرس تأكيدا عن واقع مليء بالنفاق والكذب والزيف، يقتلون الشعب باسم الوطن، ويسرقون أمواله باسم الوطن ويخونون الوطن باسم الوطن.

وتميل الرواية إلى استنطاق الأزمة وأسئلتها المقلقة بالكشف عن فساد أفراد السلطة، وأعمالهم المشبوهة التي تتّخذ أكثر من وجه يصبّ كلّه في المصالح الخاصة، ويشير النص إلى بعض الشخصيات ممن تسلقوا المناصب ويعريهم (كان أستاذا للعربية.. قبل أن يصبح فجأة..

سفيرا في دولة عربية ! كيف حدث ذلك ؟ يقال إنه ردّ دين.. وقضية "تركة" وصداقة قديمة تجمع ذلك الأستاذ بوالد إحدى الشخصيات.. وأنها "الحالة الدبلوماسية" الوحيدة! مثل "سي حسين" الذي أعرفه جيدا والذي كان مدير إحدى المؤسسات الثقافية، يوم كنت أنا مديرا للنشر. وإذا به بين ليلة و ضحاها يعيّن سفيرا في الخارج.. بعدما طلعت رائحته في الداخل. فتكفلوا بلفه في بضعة أشهر و بعثه إلى الخارج مع كل التشريفات الدبلوماسية خلف الجزائر ! ها هو اليوم .. في جوه الطبيعي. لقد استدعي إثر قضية احتيال و تلاعب بأموال الدولة في الخارج، ليعاد دون ضجيج إلى وظيفة حزبية.. ولكن على كرسي جانبي هذه المرة. هناك دائما في هذه الحالات.. سلة مهملات شرفية!)[23]، وبهذا الأسلوب الذي تغلب عليه السخرية يعري الراوي أفراد السلطة الذين نهبوا الوطن وجعلوه أضحوكة .

ويرثي الوطن حاله، ويستحضر كما يستعرض خيبته بمرارة المخدوع والمقهور المنتظر بلا أمل وعود حكام يتداولون على السلطة ينهبون ثروات البلاد وكنوزها ويغادرون، ويتركوا مكانهم للصوص جدد، يحترفون الكذب والنفاق بوعودهم الزائفة في الإصلاح والعمل والرقي والتقدم. وطن منهك بسبب الفساد والسرقات والعنف، تمكنت منه الفاجعة والمأساة حدّ النقمة على أبنائه.

3-2 محكي الأزمة الوطنية(الإرهاب):

لقد حاول الخطاب الروائي الجزائري (في نهاية الثمانينيات الخروج من سياسة النظرة الأحادية والقوالب الإيديولوجية، حيث كانت أعمال الروائيين تعبيرا عن أزمة البلاد والشعب، وتحولت الثنائية من أزمة الأدب إلى أدب الأزمة)[24]، وقد شكّلت هذه المحنة التي مرت بها الجزائر مرجعية للخطاب الروائي، إذ كان موضوع العنف الإرهابي مادة دسمة وحلقة وصل بين معظم الأعمال الروائية التي استطاعت مواكبة الأزمة على أصعدة مختلفة، مثلما تجلى ذلك في روايات عديدة منها: الورم لمحمد ساري، فتاوى زمن الموت لإبراهيم سعدي، متاهات ليل الفتنة لحميدة العياشي، وطن من زجاج لياسمينة صالح...

تحاول الروايات رصد أهم التحولات، والأحداث والوقائع التي شهدتها الجزائر متسلحة بالسرد، وقد كانت مظاهرات أكتوبر 1988، أهم محطة تاريخية ومنعرج خطير يرتبط بتحول

الجزائر(كانت البلاد تشهد أول تظاهرة شعبية لها منذ الاستقلال، والغضب ينزل إلى الشوارع لأول مرة، ومعه الرصاص والدمار والفوضى)[25]، مظاهرات فتحت أزمة سياسية أمنية عنيفة، كانت قبل ذلك اجتماعية، واقتصادية، ضربت في العمق معبّرة عن غضب الشعب ومعاناته جراء الفقر، والتهميش، والمحسوبية، والظلم، جعلته ينزل إلى الشارع وينخرط في مواجهات مع السلطة شهدها شهر أكتوبر(25 أكتوبر 1988 عناوين كبرى.. كثير من الحبر الأسود. كثير من الدم وقليل من الحياء)[26].

وتتأثث صورة الوطن الجريح انطلاقا من أحداث أكتوبر1988، لتكشف عن أزمة سياسية ونظام سلطة انتهج سلوكا منحرفا وخارجا عن كل أطر الشرعية والحرية قاد إلى كارثة، لقد قامت السلطة بإنزال الجيش إلى الشارع وأمرته بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، وراح خلالها ضحايا أبرياء. وتتفاقم الأزمة بعد عمليات القتل الواسعة التي شنتها الجماعات الإرهابية.

وتعتمد الروايات في بنائها على الإفادة من الصحافة ووسائل الإعلام عامة، وذلك عبر توظيف العناوين الرئيسة والأخبار المتفرقة، لأن الصحافة كانت شاهدة على بداية الأزمة الحقيقية، في بداية التسعينيات كما صورتها العديد من الروايات. وتعلق السلطات حضر التجول، وتتأجج المظاهرات أكثر(اعتقال 469 شخصا خلال الأيام الثلاثة الماضية جبهة الإنقاذ تعلن العصيان المدني، وبدء الإضراب والاعتصام المفتوح)[27]، ويخطب زعيم الإنقاذ عباسي مدني (واصفا الشاذلي بأنه مسمار مزروع في كعب الجزائر لابد من اقتلاعه، وأن مسيرة الملتحين تتوجه نحو القصر الرئاسي مطالبة بتقديم تاريخ الانتخابات الرئاسية)[28].

ويخيّم الحزن على العاصمة وعلى الشعب بأكمله، وتتفاقم الأمور وتزداد تأزما، بإعلان الرئيس بن جديد (في نشرة الثامنة مساء من ليلة 11 يناير 1992 استقالته وحل البرلمان.. ومن ثمة دخول البلاد في متاهة دستورية)[29] ورأى خلالها كثير من الجزائريين الفرج على يد رجل جاء من المنفى لإنقاذ الوطن، إنه الرئيس محمد بوضياف، الرجل الذي وجد نفسه بعد الاستقلال في سجون الوطن بأمر من رفقاء الجهاد، بعد أن كان في سجون الاحتلال.

بعد ثمانية وعشرين سنة لم يتذكره أحد من رفاقه، ولما اشتدت الأزمة وعجز الجميع على احتوائها، نادوه لينقذ ما يمكن إنقاذه ويغطّوا به مزيدا من جرائمهم وينهبوا خيرات البلاد، بعد

أن سطوا على أحلام الشعب وثروات البلد. فراح بقدومه يعلن الحرب على كل أشكال الفساد وأصحابه.

لقد كان "بوضياف" يدرك نواياهم الخفية، لكنه جاء يبحث عن ميتة أجمل في وطنه. كما قال لزوجته ذات يوم (كل هذه الحفاوة لم تمنعهم من اغتيالي.. فلا ثقة لي في هؤلاء [...] أملي أن يمهلوني بعض الوقت)[30]. لكن القتلة كانوا أسرع.

لقد بات القتل دستور الجماعات الإرهابية التي تحصّنت في الجبال وتخندقت، تصدر في كل مرة فتاوى تبيح لهم القتل بكل الطرق– حتى الدولة لم تستثن من عمليات القتل-. أخذوا يتفننون في قتل ضحاياهم بأبشع الطرق والتنكيل بجثثها، خاصة (مذ صدرت فتوى تبشر المجاهدين بمزيد من الثواب، إن هم استعملوا السلاح الأبيض الصدئ.. من فؤوس وسيوف وسواطير لقطع الرؤوس وبقر البطون وتقطيع الرضع إربا)[31] .

هكذا تُبعَث الأحداث على صفحات الروايات بأسلوب مباشر تستمر في سرد الأزمة التي استفحلت في أوصال المجتمع، حيث تطال يد الإرهاب الشعب وخاصة منهم الطبقة المثقفة والصحافة و(رجال الأمن وبعض البائسين من شرطة السير الذين انقرضوا في بضعة أشهر رميا بالرصاص، وذبحا ومطاردة في المقابر، حيث اغتيل العديد منهم هو يرافق قريبا إلى مثواه الأخير)[32]. وأغلب الذين قتلوا على يد الإرهاب، قتلوا ذبحا لاسيما في بيوتهم وأمام عائلاتهم. أحد الصحفيين.

لقد بدأت الأزمة تعصف ببنية المجتمع الجزائري، إذ خلقت فتنة عميقة وشوهت العلاقات الاجتماعية، وفككت روابطها، وأحدثت انشقاقات بين أفراد المجتمع نتيجة الاختلافات الإيديولوجية والتوجهات السياسية والحزبية، فدخل الشك كل القلوب. أزمة جعلت الجزائري يعيش حالة من الشك والريبة في كل شيء وفي أقرب المقربين له، فداخل الأسرة الواحدة نجد الأعداء، الإرهابي ومن يعمل في السلطة، مثل ولدا حسان في "ذاكرة الجسد" أحدهما ينتمي للجماعات الإرهابية والآخر يُقتل على يد الإرهاب بتهمة مهنته موظفا عند الدولة (العدو).

حينما كان الوطن يتخبط في الدمار والعنف ويغرق في المأساة كان يغرق معه أفراد المجتمع (الصحفيون والمسرحيون والكتاب والشعراء، تعرضوا لاغتيالات كثيرة في الجزائر عبر سنوات المحنة التي مازالت أثارها حتى الآن تتداعى وتتوالى)[33]. ، وحين يحضر الوطن تحضر صورته السلبية في الروايات التي تناولت الأزمة، حيث يتصارع الحب والكراهية واليأس والأمل داخل ذات السارد، وأمام كل تلك الفجائع تخلع النصوص الروائية قيد الدراسة عن الوطن رداء الحميمية والألفة والانتماء والاستقرار والهوية، وتلبسه عباءة القاتل والمجرم الذي يتلذّذ بقتل أبنائه ويتمتع بعذابهم، حتى أندثر معناه، ولم يعد له موقع في قلوبهم.

لقد قُدّم الوطن في رواية الأزمة الوطنية في (واقع يناقض المفهوم النظري أو ما يجب أن يكون عليه وطن تنعدم فيه الحرية، وطن يقضي على النظام بالفوضى والتشويه، ينتهك حرمة القانون مكرسا سلطة القوة وعنفها ينزع من الإنسان إنسانيته، ويطلق العنان للعدوانية الحيوانية الكامنة فيه)[34] .

تقدم النصوص الوطن كله اضطهاد، يكرس أشكال الموت ويمارس العنف والقيد والقهر على أبنائه. تتوزع هذه الصورة على جميع الروايات لاسيّما وهي تتعرض للأزمة الوطنية التي اتّسمت بالعنف. ولوّنت الحياة بمزيد من مأساوية وسوداوية اقترنت بعدمية الوجود.

لقد أصبح الوطن يقتات على أشلاء أبنائه، ويلهث عطشا للارتواء من دمائهم فيتحول إلى وحش يحصد أرواحهم، وتلك هي صورة الوطن التي قدمتها الروائية، فدال الوطن في وعي السارد مؤثّث بدال الخيانة والفساد والانتهازية والعنف والقتل والدم والفاجعة السوداوية. إنها صورة تتموقع في الرواية الجزائرية ككل والتي انتهجتها وولّدتها ظروف الجزائر والأزمات التي عاشتها، جعلت السارد البطل يسرد تجربته على إيقاع حزنه وفاجعته إثر فقدانه الوطن، هكذا إذن، كان الوطن حكاية كل الروايات

4.خاتمة:

تمتلك الكاتبة قدرة على استحضار الوطن بكل تمثلاته، فهي تسمو باللغة للحديث عن الوطن موضوعا ودلالة. فيحضر الوطن عندها ليرتبط بالثورة في صورتها المقدسة، حيث التضحية من أجل الحرية والاستقلال بعيدا عن الخلافات والانشقاق، في مقابل ذلك التاريخ

النضالي الثوري، يحضر الوطن القائم على التصفيات الجسدية داخل صفوف جبهة التحرير الوطني.

- تبرز صورة أخرى للوطن المرتبط بذلك المشروع القائم على النظام الواحد المتعصب للرأي الواحد الذي لا يفسح المجال للرأي الآخر بعد الاستقلال

.- وتظهر صورة الوطن المرتبط بالإرهاب؛ أين تحمل الكاتبة السلطة مسؤولية التحولات السلبية التي أفرزت الأزمة الوطنية التي عاشها الوطن وأبناؤه في العشرية السوداء، ولازالت تداعياتها إلى الآن.

الهوامش:

[1]-ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998.

[2]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت،2003، ص1141.

[3]- الزمخشري: أساس البلاغة، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، بيروت، لبنان، دط، 2013، ص911.

[4]- مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر،(دراسة) منشورات إتحاد العرب، دمشق، 1998،ص،17.

[5]- أمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية من التماثل إلى المختلف، دار الأمل، الجزائر،2006،ص 57.

[6]- صلاح فضل أساليب السرد في الرواية العربية، مركز الإنماء الحضاري دار المحبة، دار آية دمشق، 2009،ص 130.

[7]- أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 16، 2007. ص128.

[8]- المصدر نفسه، ص53.

[9]- المصدر نفسه ، 2007، ص72.

[10]- المصدر نفسه، ص 72-73.

[11]- المصدر نفسه، ص322-323.

[12]- مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية) منشورات دار الأديب، الجزائر ، ط1، 2005 ، ص26.

[13]- طه وادي، الرواية والسياسة، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1996،ص9.

[14]-بوشوشة بن جمعة: سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، ط 1، 2005.ص 125.

[15]- عادل فريجات: مرايا الرواية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000،ص116.

[16]- أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، 148.

[17]-المصدر نفسه، ص 243.

[18]- المصدر نفسه ، ص 243.

[19]-المصدر نفسه، ص 243.

[20]-المصدر نفسه، ص317.

[21]- المصدر نفسه، ص 233-234

[22]- المصدر نفسه، ص354- 355.

[23]- المصدر نفسه، ص 357 -358 .

[24]- بعلي حفناوي: هاجس الحداثة وإشكالية العنف في رواية جيل الأزمة، الملقى الدولي الثامن للرواية، عبد الحميد بن هدوقة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، ط1، 2004، ص ص126.

[25]-أحلام مستغانمي: عابر سرير، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط6، 2007، ، ص18.

[26]-أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص15.

[27]- أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 16، 2007، ص155.

[28]- المصدر نفسه، ص187.

[29]-المصدر نفسه، ص 236

[30]-المصدر نفسه، ص 244.

[31]-أحلام مستغانمي: عابر سرير، ص30.

[32]-أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، ص277

[33]- المصدر نفسه، ص 148.

[34]-الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص69.